

عصر الولاية

٩٧ - ١٢٨ هـ / ٧١٦ - ٧٥٦ م

تولى أمر الأندلس خلال هذه الفترة ٢٢ والياً ، حكم واحد منهم مرتين . ومعنى ذلك أن متوسط مدة الولى أقل من سنتين ، وهذا وحده يكفى لإعطائنا فكرة عن عدم الاستقرار الذى ساد الأندلس خلال هذه الفترة . وبعد أن درسنا تاريخ المغرب خلال هذه الفترة نتبين أن ذلك القلق كان هو الأمر المتوقع ، فلدينا أولاً اضطراب السياسة العامة لبنى أمية بعد الوليد بن عبد الملك ، ووقوعها فريسةً للعصبية القبلية والشخصية ، وكان لا بد أن يكون لذلك كله أثره فى الأندلس ، كما كان له أثره الذى رأيناه فى المغرب .

وهناك كذلك الخلاف الكبير بين العصبية العربية فى المغرب ، ثم خلاف العرب البلديين مع العرب الشاميين ، ثم خلافات هؤلاء جميعاً مع البربر ، وكان لا بد أن يمتد ذلك كله إلى الأندلس .

وهناك أيضاً التنازع على السلطان بين الطامعين فيه ، وقد رأينا ما كان من أمر حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع وابنه عبد الرحمن ، ولدينا فى الأندلس ما يشبه ذلك .

يضاف إلى هذا كله أن الأندلس بلد قائم بذاته له ظروفه التى لا تشبه ظروف أى بلد مما فتحه المسلمون فى ذلك الحين ، فإن الأندلس كان ثغراً لبلاد المسلمين ، وكان لا بد لأهله من العرب من مواصلة الفتوح فيما يليه من البلاد . ويستوقف نظرنا أن العرب رغم مشاغلهم الكثيرة فى الأندلس ، استطاعوا أن يواصلوا الفتوح فى « غالة » أى فرنسا ، نحو ٢٠ سنة بعد تمام فتح الأندلس ، وكسبوا خلال هذه الفترات انتصارات كبيرة تضيف صفحاتٍ مجيدةً إلى سجل الفتوح الإسلامية . ولا يقلل من أهمية الفتوح أنها وقعت بعد موقعة بلاط الشهداء ، ولذلك سنرى أن المد العربى لم يكن ليستمر إلى ما لا نهاية ، كان لا بد أن يقف عند نقطة ما ، ونقطة بلاط الشهداء نقطة رائعةً بالنسبة لقوم عددهم قليلٌ نسبياً ، بدأوا فتوحهم من المدينة المنورة عقب وفاة الرسول ﷺ مباشرةً .

وهناك أخيراً مشاكل الحكم في الأندلس نفسه ، وهو بلدٌ فسيحٌ جداً دخله العرب في وقت بلغت فيه مظالم القوط ذروتها ، فكان على العرب أن يعالجوا مشاكلَ جمّة . وإن الإنسان ليدهش إذ يراهم رغم صعوبة ظروفهم ، وقلة المدد الذي تلقوه من الحكومة المركزية ، يستطيعون تسيير الأمور على نحو لا بأس به إطلاقاً ، فلم يظلموا من أهل البلاد أحداً ، بل نشروا بدينهم عدلاً لم تعرفه البلاد قبل ذلك ، وعُنوا كذلك بالكثير من المرافق كالقناطر والطرق وشبكات الري وأنشأوا مساجدَ في كل نواحي الأندلس تقريباً .

ومن حسن الحظ أن الأمور عندما بلغت غايتها في الاضطراب ، صار الأمر إلى عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، وهو من عباقرة الحرب والسياسة في تاريخ الإسلام ، فأنقذ البلاد من الفوضى ، والعرب من نتائج الاستمرار في الحرب الأهلية ، واحتفظ بثمرات جهود من سبقه من الحكام القادرين ، فلم تضع هذه الجهود هباءً .

ولا يتسع المجال للكلام على ما قام به أولئك الحكام خلال فترة الولاة ، ولكننا سنكتفى بتتبع ميادين العمل الرئيسية ، ثم المشاكل الكبرى التي واجهت الحكم العربي ، وما قام به الحكام حيالهم حتى نصل إلى إمارة عبد الرحمن الداخل .

خلافات العرب فيما بين أنفسهم ونزاعهم مع البربر :

رأينا كيف صار أمر الأندلس إلى « أيوب بن حبيب اللخمي » ابن أخت موسى ابن نصير في منتصف سنة ٩٧هـ / مايو ٧١٦م تقريباً ، وأيوب بن حبيب يمثل العرب البلديين ، أي العرب الذين قاموا بالفتح والاستقرار في البلاد ، وأصبحوا بمقتضى هذا يرون أنهم أولى بها من غيرهم .

وقد تواطأ أيوب بن حبيب والنفر الذين اغتالوا عبد العزيز بن موسى ، مع الخليفة سليمان أملاً منهم في أن تؤيدهم الحكومة المركزية ويستتب سلطانهم في البلاد .

وقد ظل أيوب بن حبيب حاكماً نحو أربعة أشهر لم يفعل خلالها شيئاً ذا بال ، ولكنه هو الذي نقل عاصمة الأندلس إشبيلية إلى قرطبة ، لأن موقعها أكثر توسطاً ، ثم إن أعداداً كبيرة من العرب البلديين سكنت حولها فأراد أن يعتز بهم .

ولكن الأمور لم تسر على ما قدره أيوب ومن معه ، فقد قام « يزيد بن أبي مسلم » والى سليمان بن عبد الملك على المغرب ، بتعيين « الحُرّ بن عبد الرحمن الثقفي » على الأندلس ، فكان الحُرّ - على هذا - يمثل الحكومة المركزية ويعتز بالجند الشاميين ، مما أبعد عنه البلديين . وقد بدأ « الحُرّ » ولايته في ذى الحجة سنة ٩٨هـ / ٧١٧م ، واستمر سنتين وثمانية أشهر ، لا تنسب المراجع إليه فيها كبير عمل ، ولكنه هو الذى أقام دار الإمارة في قرطبة ، وكانت هذه الدار في مواجهة قنطرة الوادى ، وكانت قبل ذلك مقراً للحاكم القوطى الذى انتزع مغيث الرومى البلد من يده ، وقد سكن مغيث في جانب من القصر عرف ببلاط مغيث ، ثم أخرجه منه أيوب بن حبيب وسكن فيه ، فلما جاء الحُرّ بن عبد الرحمن الثقفى ، زادت عنايته بالقصر وجعله قصر إمارة فعلاً وسمى هو والأرض الواسعة الممتدة قرية على ضفة النهر ، باسم « بلاط الحُرّ » .

فلما صارت الأمور إلى عمر بن عبد العزيز في ١٠ صفر سنة ٩٩هـ / ٢٢ سبتمبر ٧١٧م ، نظر في أمر المغرب والأندلس فأقام على الأول « إسماعيل بن عبيد الله » وعلى الثانى «عنبسة بن سحيم الكلبى » وكلاهما كانا من خيرة الحكام . بدأ عنبسة في رمضان سنة ١٠٠هـ / أبريل - مايو ٧١٩م ، وعلى الرغم من قصر المدة التى تولاها ، فإنه من الولاة القلائل الذين قاموا بجهود إصلاحية عمرانية ، فهو أول من نظر في حصر أرض الأندلس وتمييز ما فتح منها صلحاً مما فتح عنوةً . وبدأ استخراج الخمس من الأراضى التى فتحت عنوةً ليجعله ملكاً للدولة ، وأتم هذا فيما يتصل بإقليم قرطبة والمفروض أنه فتح عنوةً . وقد دخلت في الخمس أرض واسعة أنشأ الحُرّ في بعضها مقبرة للمسلمين ، ووزع الباقي على الزراعة على أساس المزارعة ، أى المناصفة فى الغلة ، ثم أعاد بناء قنطرة الوادى وكانت قد تصدعت .

وفى سنة ١٠٢هـ / ٧٢١م خرج عنبسة غازياً فى غالة فاستشهد فى «طرسونة » فى يوم عرفة من العام نفسه ، وبذلك يكون هذا الرجل قد ختم حياته بالاستشهاد فى سبيل الله وهو أعظم الصالحات .

وقد كان عمر بن عبد العزيز قد فكر فى إخلاء الأندلس من المسلمين خوفاً على مصيرهم فى ذلك الثغر السحيق فى نظره ، ولكنه عدل عن هذه الفكرة ، إذ كان

المسلمون قد استقروا في البلاد وكثروا وبدأ نفرٌ من أهلها يسلمون ، فلم تكن هناك وسيلةً لتنفيذ هذا القرار الخاطئ دون شك .

وكان عمر بن عبد العزيز قد ولى على الأندلس رجلاً من خيرة الولاة هو **السمح بن مالك** فصلحت الأمور على يديه فترةً قصيرةً من الزمن ولكن بعد وفاة **السمح بن مالك** وبعد موت عمر بن عبد العزيز ، عاد الأمر في المغرب والأندلس إلى **الجند الشاميين** وولاتهم ، فصارت الخصومات بين الولاة والعرب البلديين ، وانضم البربر في الأندلس إلى البلديين لاتفاق مصالح الجانبين ، وقد بلغ استبداد الشاميين ذروته في الأندلس حتى سنة ١١١ هـ / ٧٣٠ م ، وهي التي انتهت فيها إمارة « **الهيثم بن عبيد الكلابي** » وكان من أشد الولاة تعصباً للشاميين ، الذين يسمون هنا أيضاً **القيسيين** . وكان عرب الأندلس ينتهزون الفرصة بين الحين والحين لإقامة واحدٍ منهم عاملاً على الأندلس ، ولكن الحكومة المركزية كانت تسرع بتولية وال جديد ، وبعد عزل **الهيثم** ، أقام عرب الأندلس والياً منهم ثم اختارت الحكومة واحداً منهم ، هو « **عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي** » فبدأ ولايته في صفر سنة ١١٢ هـ / مارس - أبريل ٧٣٠ م .

وكان **عبد الرحمن بن كبار جند الأندلس** ومن أولئك الذين قضوا معظم أيامهم في الجهاد في غالة ، وقد سبق له أن تولى الأندلس سنة ١٠٢ هـ / ٧٢١ م ، فلما عادت إليه الولاية للمرة الثانية لم يكن له همٌّ إلا جمع القوات وإعداد العدة للجهاد ، وكانت ولايته القصيرة من أهدأ فترات عصر الولاة ، ولسوء الحظ أن **عبد الرحمن** استشهد في بلاط الشهداء في رمضان ١١٤ هـ / أكتوبر ٧٣٢ م .

وعقب ذلك أقام عرب الأندلس على أنفسهم واحداً منهم ، هو **عبد الملك بن قطن الفهري** الذي سيكون له دورٌ كبيرٌ في تاريخ الأندلس فيما بعد ، وكانت ثورة البربر في المغرب قد بدأت تشتد وانتقلت أصداؤها إلى الأندلس ، فبدأ أمر العرب في ذلك البلد يتحرج .

ولا تذكر لنا المراجع شيئاً واضحاً عن أسباب ثورة البربر على العرب في الأندلس ، وكل ما نفهمه منها أنها كانت امتداداً طبيعياً لثورتهم في أفريقية ، ولقد قيل كذلك إن الثورة اندلعت لأن عرب الأندلس اختصوا أنفسهم بأحسن الأراضي تاركين للبربر أسوأها ، أي المناطق الجبلية القاحلة ، وذلك غير صحيح فإن أراضي

الأندلس الخصيبة من الكثرة بحيث تتسع لكل المهاجرين عرباً وغير عرب ، ثم إن المسلمين ، لم يكونوا إذا دخلوا بلداً يقتسمون أراضي الناس فيما بينهم ، والدولة العربية لم تكن دولة نهب وسلب وإنما كانت دولة لها نظامها ، وأراضي البلاد المفتوحة كانت لها نظماً التي تحكّمها ، ولم نسمع أبداً أن قبيلاً من العرب دخل بلداً فاستولى على مزارعٍ وضياعٍ وطرد أصحابها منها . وإنما الفاتحون كانوا يستقرون في النواحي جماعاتٍ عسكريةٍ تحت تصرف الدولة ، وفي قبائل ، مقابل ذلك كانوا ينالون حصّةً مقررةً من الخراج . أما العرب والبربر الذين أحبوا أن ينصرفوا للزراعة ، فقد زرعوا أراضي بالاتفاق مع أصحابها على أساس المزارعة ، وليس على أساسٍ آخر ، وفي هذا المجال نجد أن البربر كانوا أكثر اشتغالاً بالزراعة . وقد انساحوا دون حرج في الأراضي الغنية في مشرق الأندلس وفي أحواض الوديان القريبة وخاصةً وادي تاجة ودويرو ، وتلك كانت نواحي غنية بالأرض والثمرات .

وإنما يمكن أن يقال إن بعض العرب الذين استقروا في نواحي الأندلس تمسكوا بعصبيتهم وتعالوا على غيرهم ظناً منهم أن الدولة دولتهم ، وكان معظم هؤلاء من الشامية أي من القيسية ، أي من العرب الذين كانوا يرون أن الدولة الأموية دولتهم ، أما العرب البلديون ، ومعظمهم من اليمنية فكانوا بعيدين عن هذه النزعة ، لأنهم كانوا أهل أرزاقٍ ومعاشٍ شأن غالبية الأمصار ، في حين أن الشامية كانوا يرون أنهم أهل حربٍ وسياسةٍ وحكمٍ .

في هذه الظروف نفهم أن أخبار ثورة بربر المغرب التي أنكرت سيادة العرب جملةً ، وجدت صدقاً في الأندلس . فقام البربر في النواحي التي كانت لهم فيها أغلبيةً على العرب الذين معهم وأخرجوهم ، وخاصةً من جليقية وحوض الدويرو والأراضي فيما بين هذا النهر ونهر تاجة .

وكان أمير الأندلس إذ ذاك عبد الملك بن قطن الفهري كبير العرب البلديين ، وكان هو ومعظم من معه من اليمنية يحسبون أن الثورة قامت على الشاميين ، فلما رأها موجهة إلى العرب جميعاً وبلغه من العرب الهاربين إليه ، من نواحي أشترقة وليون وسلمنقة وأبله وشقوبية أنفسهم أن البربر يسرون في ثلاثة جيوشٍ وجهتها طليطلة وقرطبة ، والجزيرة الخضراء على الترتيب ، خاف الرجل سوء العاقبة .

وفي هذه الأثناء كان بلج بن بشر القشيري ومن معه محصورين في سبتة بعد

هزيمة « الأشراف » التي أشرنا إليها في كلامنا عن الفتنة المغربية الكبرى في عصر الولاة ، وكانوا يستغيثون بعبد الملك بن قطنٍ دون جدوى ، ولكنه اضطر إلى السماح لهم بالعبور ليعاونوه على القضاء على البربر . وبدأوا بالفعل بقيادة بلج سنة ١٢٣ هـ / ٧٤١ م . ولم ينقض عامٌ على دخولهم الأندلس ، وكانوا حوالى ١٠ آلاف ، حتى كانوا قد تمكنوا من القضاء على الثائرين . وكانت المعركة الحاسمة عند وادى سليط قرب الجزيرة الخضراء أوائل ١٢٤ هـ / نوفمبر ٧٤١ م . وعقب ذلك أخذ أولئك العرب الشاميون المتعصبون يطاردون البربر وكانت نتيجة ذلك أن روع بربر الأندلس روعاً شديداً ، فأخذوا يتركون أراضيهم وخاصةً في الوسط والشمال الغربى ويعودون إلى أفريقية ، وكان لهذه الهجرة الجماعية أسوأ الأثر على مستقبل الإسلام في الأندلس ، فإن ألوفاً كثيرةً من هؤلاء المسلمين الذين كان ينتظر أن يعمروا بالإسلام كل نواحي شبه الجزيرة ، هاجروا وتركوا كل الأراضي الواقعة شمال نهر تاجة خاليةً تقريباً من المسلمين ، فأصبحت هذه النواحي ابتداءً من النصف الثانى للقرن الثامن الميلادى أراضى خلاءً مفتوحةً لنصارى الشمال ليمتدوا فيها كيفما يشاؤون ، وسيعمر النصارى جزءاً كبيراً منها خلال القرن التاسع الميلادى ويصبح حوض الدويرو أرضاً نصرانيةً ، لقد خسر المسلمون نتيجةً لاختلاف بعضهم مع بعض ريع شبه الجزيرة ، خسروه دون أن يخرجهم منه عدوٌ ، وإنما أخرجهم منه كراهةً بعضهم لبعضٍ وقلّة نظرهم إلى العواقب . وبعد أن انتصر الشاميون أصحاب « بلج » رفضوا العودة إلى أفريقية ، كما كان الاتفاق بينهم وبين عبد الملك بن قطنٍ فوقع النزاع الشديد بين « بلج » وعبد الملك وانتهى بعزل هذا الأخير ، وولاية بلج بن بشرٍ في ذى القعدة ١٢٤ هـ / سبتمبر ٧٤١ م .

وقد أنكر أهل الأندلس جميعاً رياسةً بلج ومن معه من الشاميين القيسيين ، وقاموا عليهم وقتلوا بلجاً ، فخلفه شامىٌ شديدُ العصبيةٍ مثله هو ثعلبة بن سلامة العامل ، واشتدت الحرب بين البلديين من عربٍ وبربرٍ في جانبٍ والشاميين في الجانب الآخر .

أبو الخطار وانشاء الكور المجندة :

وأسرع عامل أفريقية حنظلة بن صفوان الكلبي فأرسل والياً جديداً إلى الأندلس هو أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي ، فبدأ ولايته في رجب ١٢٥هـ / مايو ٧٤٣ م . وبدأ الرجل بدايةً طيبةً ، فأمن العرب والبربر البلديين على أراضيهم ومصالحهم ، وأراد أن يبعد عنهم أذى الشاميين ، واجتهد كذلك في إبعاد أذى هذه المنازعات القبلية العربية عن أهل البلاد المسلمين ، من أسلم منهم ومن لم يسلم ، لأنهم أساس عمارة البلاد ورخائها .

ثم نظر إلى الشاميين فتبين أنهم جميعاً متجمعون في قرطبة وإقليمها ، وهذا التجمع هو الذى يفتح لهم طريق التدخل في السياسة وشئون الدولة ، ففكر في أن يوزعهم على نواح شتى في الأندلس ، لا ينزلها من البلديين وأهل اليمن أحدٌ . وقد أشار عليه بذلك أرتطباس بن غيطشة ، شيخ نصارى الذمة ، وكان شخصيةً محترمة مقربة من الأمراء ، وكان يسمى « بقومس الأندلس » ، وانتهى الأمر إلى أن يذهب كل فريقٍ منهم إلى ناحيةٍ فيستقروا فيها ، ويأخذوا ثلث الخراج الذى يؤديه نصارى الذمة والمزارعون ، على أن يقدموا للحكومة عدداً معيناً من الجند كلما طلبت ذلك .

وقد تم توزيع أولئك الشاميين على الكور الآتية :

جند مصر : كور^(١) أوكشونية وباجة وتدمير .

جند حمص : كور إشبيلية .

جند فلسطين : كور « ريه » . Regio وهو كورة مالقة .

جند دمشق : كورة البيرة وهى غرناطة .

جند قنسرين : كورة جيان .

وقد أصبحت هذه الكور الشمالية تسمى بالكور المجندة ، وقد استقرت فيها

(١) الكورة فى مصطلح التقسيمات الإدارية العربية هى ما يقابل المحافظة أو المديرية فى مصطلح اليوم ولكل كورة زمامها (أى مساحتها) المعروف المحدد ، ولها قاعدة أى عاصمة تتبعها مدنٌ أخرى أصغر تقابل المراكز فى التقسيم الحالى .

جماعات كثيرة من جند الشام الذين ذكرناهم واطمأنوا فيها ، وكان عليهم أن يؤديوا الخدمة العسكرية للدولة على النظام الذي ذكرناه ، ولهم الحق في مقابل ذلك في الاحتفاظ لانفسهم بثلاث خراج الأرض ، وقد أصبحت هذه الأجناد من العناصر العسكرية الرئيسية في التنظيم الحربى للأندلس .

ولم يستطع أبو الخطار الاستمرار في هذه السياسة الحكيمة ، فمال إلى اليمنية ، وثار النزاع من جديد .

وفي السنوات العشر الأخيرة من عهد الولاة في الأندلس ، ظهرت حكومة الصميل بن حاتم ويوسف الفهرى ، والصميل شخصية فريدة في بابها تجمع معظم النواحي الإيجابية والسلبية في كثير من العرب الجاهليين ، الذين دخلوا الإسلام دون أن يمس الإيمان قلوبهم ، فهو شجاع لا يهاب الموت كريمٌ بكل ما في يده دون تردد ، شهيمٌ لا يرتكب ما يمس المروءة ، وهو سيدٌ مهذبٌ يعرف كيف يعامل الناس ، وهو أيضاً شاعر يقول شعراً يسيراً ولكنه يعجب بالشعر الجيد ، وهو بعد ذلك كله أميٌ لا يعرف من القرآن الكريم إلا نزرأً يسيراً ، وهو عنيف في خصومته شديد الحقد لا ينسى ثأره ، ومصرفٌ في العطاء لا يكاد يبقى شيئاً وكان لا يتورع عن شرب الخمر ، وهو ذكيٌ خبيثٌ لا يفوته أمرٌ ولا يتردد في القضاء على خصومه ، وهو كسول في معظم أوقاته ، فإذا قام على قدميه لم يهدأ ، وتحول إلى شيطانٍ متصل الحركة فيصيب الناس والبلاد منه أذىً شديداً .

هذا الرجل نظر في أمر الأندلس فتبين بسبب قيسيته ، أى شاميته ، أن الشاميين وحدهم لا يصلحون للحكم وقيادة الحرب ، وأن أمر الأندلس لا يصلح إلا إذا تعاون الفريقان على أى صورة من الصور ، ولكنهم كذلك لا يستطيعون سيادة البلديين لكثرة هؤلاء واستعدادهم للدفاع عن انفسهم في كل حين . فبدأ أولاً فجمع الشاميين إلى لواء واحد هو لوائه ، ثم بحث في المعسكر الآخر أى البلديين فاختار زعيماً يؤيده ويُسَيِّر الأمر باسمه ذلك الوقت ، فوجد يوسف بن عبد الرحمن الفهرى الذى أجمع البلديون على رياسته ، وكان الشاميون أيضاً مستعدين للخضوع له بسبب مضريرتهم . وأخيراً تم الاتفاق بين الرجلين على أن تكون الإمارة ليوسف الفهرى ويكون الصميل مستشاره وصاحب رأيه واستقر

الأمر على ذلك في ربيع الثاني ١٢٩هـ / ديسمبر ٧٤٦م . ولم تستقر الأمور لهما إلا بعد حرب طويلة مع زعيم اليمنى يسمى يحيى بن حريث ، بلغت عصبية لليمنية مبلغاً جعله غير قادر إطلاقاً على احتمال أهل الشام بأى سبيل ، ولكنه انهزم وقتل في معركة شقندة ١٣٠هـ / ٧٤٧م وخلا الأمر بعد ذلك للصميل ويوسف الفهرى حتى جاء عبد الرحمن بن معاوية الداخل .

وقد هدأت الأحوال هذه السنوات ، فيما عدا ما كان من مجاعة شديدة بلغت ذروتها سنة ١٣٦هـ / ٧٥٣م وكانت هذه المجاعة نتيجة لما رأينا من حروب شديدة بين العرب فيما بين بعضهم البعض وبين البربر ، فازدادت الهجرة إلى أفريقية وقل عدد المسلمين في شبه الجزيرة عما كان ، ويستثنى من ذلك إقليم سرقسطة وكان معظم أهله عرباً يمنيين فاستقروا في الأرض وزرعوا فلم يتأثروا بهذه الفتن إلا قليلاً .
